

الاختلافات بين العرب والبربر والصفالبة في الأندلس

د. عصمت ناز (باكستان)

يعرض لنا تاريخ الأندلس في مراحلها المختلفة صفحات باهرة من ضروب المجد الحربي والسياسي وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان، ولكنه يقدم في نفس الوقت صفحات مشجية مؤثرة كتنقلب الحدود وتعاقب المحن والانحدار البطيء المؤلم المؤدي للهزيمة والذلّ والسقوط.

وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب أجيال وأمم وتبدل حضارات ودول، ولكن الصراع الطويل المضطرم الذي خاضته الأمة الإسلامية في الأندلس، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم يبدو فضلا عما يتميز به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر قلما يقدمه إلينا تاريخ أمة من الأمم التي اشتهرت بالذود عن حياتها وحرّياتها (1).

وتميّز العصر الإسلامي في الأندلس من الناحية الاجتماعية بالانحلال العناصر التي كان المجتمع الأندلسي بوجه عام والمجتمع القرطبي بوجه خاص يتكون منها والتي استطاعت الخلافة الأموية أن تجعل منها جميعا كتلة واحدة ومجتمعاً متماسكا. وكان هذا التفكك الاجتماعي نتيجة طبيعية للانحلال السياسي الذي أصيبت به الأندلس بعد سقوط الخلافة. فقد انحاز الصقالبة إلى شرق الأندلس وبقي الأندلسيون (الزعماء العرب) مسيطرين على جزء كبير من غرب الأندلس، أما البربر فتجمّعوا في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة.

ورغم المميزات الاجتماعية، لا نستطيع أن نضع أي فروق واضحة بين أصول العناصر العربية والمسالمة والمولدين، فقد تمّ التمازج بين تلك العناصر، ويجدر أن نطلق عليهم جميعا اسم «أندلسيين»، وذلك لصعوبة التمييز الدقيق بين تلك الأجناس

(1) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص 16.

وخير دليل على ذلك أن كثيرا من العرب تزوجوا أندلسيات، بل إن كثيرا من خلفاء الأندلس كان يجري في عروقهم الدم الإيبيري من جهة الأمهات والجدات، وظهر هذا واضحا في صفاتهم الجسميّة فقد ذكر ابن حزم :

«أنّ خلفاء بني أميّة ولاسيما أولاد الناصر كانوا مجبولين على تفضيل الشّقرة، لا يختلف في ذلك منهم مختلف، وقد رأيناهم ورأينا من رأيهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلّا أشقر نزاعا إلى أمهاتهم حتّى صار ذلك فيهم خلقة، حاشا سليمان الظّافر فإنني رأيته أسود اللّمة واللّحية، أما الناصر والحكم المستنصر رضي الله عنهما، فحدثني الوزير أبي رحمه الله وغيره أنّهما كانا أشقرين أشهلين، وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرّحمان المرتضى رحمهم الله، فإنني قد رأيتهم مرارا ودخلت عليهم فرأيتهم شقرا شهلا وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم، فلا أدري أن كان ذلك استحسان مركب في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجروا عليها⁽¹⁾».

ونجد نفس الصفات في الصقالبة لأن شعرهم أشقر ولونهم أبيض وهم أيضا تأقلموا في المجتمع الأندلسي تماما بل أخذوا الأماكن الرفيعة في المناصب الحكومية، وكان لهم تأثير قوي، ويسمى آدم منتر الصقالبة والترك من العبيد البيض «أرستقراطية العبيد»، وكان العبيد الصقالبة يُقدّمون على الترك، حتى قال الخوارزمي «يستخدم الترك عند غيبة الصقلبي⁽²⁾». ألّف الصقالبة عنصرا مهما من عناصر المجتمع الأندلسي، وقد استطاع بعضهم أن يكون ثروات طائلة وأن يمتلك العبيد والأراضي الشاسعة، ونرى كثيرا منهم من وصل إلى مناصب الرئاسة في الدولة.

ومن الصقالبة نجد صاحب الشرطة وصاحب الخيل وصاحب الطّراز. ومن فتيان القصر الخليفي مرتاح وسكر ومعقل وميسور الفتى الكبير والصقلبي الجعفري وأفلح

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب : ص 433، طوق الحمامة : ص 252.

(2) آدم منتر، الحضارة الإسلامية : 1 / 280.

الوكيل وذكاء الوصيف الذي عينه الخليفة الحكم المستنصر ناظرا للأمير أبي الوليد هشام متكفلا بأموره، وكذلك شاطر الجعفري صاحب خيل الأمير هشام (1).

ورغم إخلاصهم للعاملين فقد شاركوا في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد، فأحيانا نراهم منتصرين وأحيانا منهزمين إلا أننا نراهم يظهرن دائما روح الإقدام والطموح والاستبداد (2). فرأينا نظيفا الخادم ونصرا المظفري ومن معهما من الغلمان يدافعون عن الزاهرة أمام البربر بزعامة «محمد بن عبد الجبار» والعامّة فيردونهم عنها، وكان عند المهدي غلام اسمه «واضح» (3) فاتخذ له المهدي جيشا وسار به واضح ونادى منادي واضح في سائر الثغور من حمل شيئا من طعام إلى محلة البربر فقد حلّ ماله ودمه، وكذلك راسل واضح زعيم النصاري ليحارب معهم ضد البربر. وذكر ابن حيان أنه بعد وفاة «فاتن الحكمي» نصب المهدي مكانه «جؤنرا الحكمي» للقيام بأمر القصر. وقال ابن الأبار «ولم يكن بالبعيد منه في رفعة خلاله وثقته أمانته وفهمه ومعرفته لجميع أهل الدولة وأنه لم يقد على رأس أمير بالأندلس من هذا الجيل الغليظ الطباع من الصقلب كهذين الخادمين فاتن وجؤنر سعة معرفة وحسن خدمة ولطف إشارة مع رجب صدر وشدة احتيال خلاف ما عليه الصقالبة» (4).

وفي سنة 400هـ / 1009م، وصل إلى قرطبة مجموعة من العبيد العامريين من شاطبه وغيرها وكانوا يعملون في السر على الإيقاع بالمهدي. وفي ذلك العام أيضا كانت الواقعة بين البربر وواضح، وملك البربر جميع ما كان في عسكر واضح من مال وسلاح، وفي جولة أخرى كان المهدي قد دفع إلى واضح خمسين ألف دينار

(1) ابن حيان، المقتبس : ص73، 142، 185، 189.

(2) العبادي، الصقالبة في إسبانيا : ص17.

(3) هو واضح الصقلبي في عهد هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (المهدي). كان ضد البربر ووثب عليهم وظلمهم ظلما شديدا، وبقي أيضا مع هشام بن سليمان بن الناصر، وكانت له مكانة كبيرة عند حكام قرطبة.

(4) ابن الأبار، التكملة : ص10-11.

ليوزعها على جند مدينة سالم، وانهزم واضح وبقي المال في داره، فنزلها «زاوي بن زيري» ⁽¹⁾ فاحتوى ما في الدار ورأى واضح وابن عبد الجبار في قتالهما للبربر أن يعاقدا الإفرنج على شروط منها تسليم مدينة سالم لهم فدخلها الإفرنج وضربوا في مجسدها الناقوس وحولوا قبلتها، ثم شرطوا على واضح أن يلزم لكلّ منهم دينارين يومياً إلى جانب الشراب واللحم، وللقومس في كل يوم مائة دينار ⁽²⁾.

وقد رأى الصقالبة في النهاية أنه لا سبيل إلى القضاء على الفتنة إلا بالتخلص من ابن عبد الجبار وقتله فتآمرت طائفة من العبيد العامرين مع «واضح» الذي كان حاجباً للمهدي، وبعث واضح برأسه إلى البربر وكان يظن أن هذا الأمر يقضي على الفتنة ويرضي البربر، وبعد مقتل المهدي رجعت الخلافة إلى هشام المؤيد فأرسل رسولا إلى سليمان المستعين ⁽³⁾ لإنهاء الفتنة، لكن الجند القرطبيين قتلوا هذا الرسول ولم يستطع كل من واضح وهشام المؤيد إنقاذه. ثم وبعد ذلك رأى واضح الهرب من قرطبة أمام تلك الأمور المعقدة التي لا حلّ لها، وعلم الجند بذلك فزحفوا إليه مع ابن وداعة وقتلوه ⁽⁴⁾.

وفي سنة 401هـ / 1010م حاول ابن مناو وزير هشام ابن المؤيد الذي لقب بذي الوزارتين الصلح مع البربر، ولكن الفقهاء عارضوه ⁽⁵⁾.

وذكر ابن عذارى أنه لما استولى البربر سنة 403هـ / 1012م مع سليمان على

(1) هو زاوي بن زيري من أسرة بربرية رحل إلى الأندلس وسرعان ما أصبح له شأن في جيش البربر الذي جمعه بنو عامر، وأخذ الأراضي في البيرة وقد حلت محلها غرناطة شيئا فشيئا فشرع زيري في تصريف الأمور بوصفه والياً مستقلاً على غرناطة واتخذ لقب سلطان. انظر: بستانى : 345-346/9.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب : 9 / 87، 91، 96، 105.

(3) المستعين : هو زعيم البربر في الفتنة الكبرى بقرطبة : 4 / 163، ابن عذارى، م. ن : 3 / 221.

(4) ابن عذارى، م. ن : ص 105 - 109.

(5) ابن عذارى، م. ن : 3 / 109.

قرطبة خاف العبيد العامريون على أنفسهم فهربوا إلى شرق الأندلس فاستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها، ولكن بالرغم من ذلك رأينا أسماء الصقالبة على العملة أثناء سنوات حكم سليمان ولا بدّ أن يكون هؤلاء وأمثالهم أصحاب دار السكة في قرطبة.

قصد «عبد الله المعروف بالمعيطي» ⁽¹⁾ في سنة 405هـ / 1014م مجاهدا العامري (صاحب دانية) فبايعه مجاهد أميرا للمؤمنين ⁽²⁾. ودخل «علي بن حمودة» في سنة 407هـ / 1016م قرطبة وكان معه خيران العامري الذي كان طامعا أن يجد مولاة هشاما المؤيد حيّا، فلمّا لم يجده أظهر علي بن حمود خلافته وأراد قتل خيران العامري ففرّ خيران العامري إلى شرق الأندلس.

وكان للصقالبة دور في قتل الخليفة علي بن حمود، فقد قتله ثلاثة من صبيان أعمار منهم منجج وصاحباه وتوجهوا إلى «القاسم بن حمود» ⁽³⁾ فنصبوه خليفة. وقد استطاع عدد كبير من الصقالبة منذ القرن 4 / 10 أن يحتلوا مكانة عالية في المجتمع القرطبي الأندلسي، وقد شارك الصقالبة في أحداث قرطبة الاجتماعية السياسية والاقتصادية، ولعل سبب ذلك يرجع إلى تمتعهم بمركز قوي في القصر الخلفي منذ عهد عبد الرحمان الناصر حتى الفترة الأولى من القرن الخامس الهجري، وكثير من خلفاء قرطبة وخاصة خلفاء الفتنة البربرية كان يتعشق هؤلاء الفتيان علاوة عن

(1) هو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد من الأمويين، بويج بالخلافة في شرقي الأندلس وخطب باسمه ثم خلع، ورحل في آخر عمره إلى كتامة وتوفي بها سنة 432هـ / 1040م. انظر : ابن خلكان، الوفيات : 1 / 246، ابن سعيد، المغرب : 1 / 419.

(2) انظر : ابن بسام، الذخيرة : 1 / 28، ابن عذاري، م. ن : 3 / 122 - 128.

(3) هو قاسم بن حمود المأمون وأخو علي بن حمود. وقيل إنه يتشيع لكنه لم يظهر ذلك، بقي من 1017/408هـ حتى 1021/412هـ قام عليه ابن أخيه يحيى فهرب لكن رجع إلى قرطبة وتولى الخلافة لكن غلب عليه أهل قرطبة وبقي أسيرا عند أخيه إدريس إلى أن قتل خنقا سنة 431هـ. انظر : الحميدي، جذوة المقتبس : ص 54 - 55.

الجواري الصقليبات الذين كانوا يعملون في القصر الخلافي في خدمة الحريم، وكانوا عنصرا مهما من عناصر الإنتاج في المجتمع القرطبي، فقد عمل بعض هؤلاء الصقالبة في مهن مختلفة لدى الأرستقراطية وأصحاب البيوت الأندلسية. وعلى الرغم من الثورات والفتن بقي الصقالبة متمتعين بالحرية التي تمتعوا بها من قبل.

إن المجتمع الأندلسي الذي كان يتمتع بالأمن في ظل الخلافة الأموية، فقد أمنه إثر سقوط قواعد الأندلس الشهيرة في سلسلة المعارك الطاحنة التي عانت منها الأمة الأندلسية منذ انهيار صرح الخلافة الأموية في الأندلس في أواخر القرن 4 / 10، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة على أنقاض الدولة العظيمة الشامخة. وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التي كانت تسطع بمجمعاتها وحضارتها الزاهرة خلال العصور الوسطى يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية في الأندلس، ويحدث أعمق صدى في الدول الإسلامية بالشرق والغرب ويتنزع من وحي النثر والنظم أروع المراثي (1).

وكانت الأمة الأندلسية كلما سقطت قاعدة من قواعد الشهيرة في يد عدوتها القديمة المتربصة بها إسبانيا النصرانية، ألقت عزاءها في القواعد الأخرى، وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية استبقاء لحريتهم ودينهم وكرامتهم، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها تؤلف مملكة إسلامية صغيرة، قاست الأمرين في مواجهة النصارى.

وهكذا اتسمت سياسة الأندلس في هذه المدة (2) بالفرقة والتناحر حتى قيل : إن هذه الدولة الجديدة التي أنشأها الإسلام في إسبانيا كانت تحمل منذ البداية في داخلها بذور انحلالها. وكان هذا المجتمع الجديد الذي جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره يجيش بمختلف الأهواء والنزعات وتمزقه فوارق الجنس والعصبية.

(1) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص 17.

(2) عبد الرحمن حجي، تاريخ الأندلس : ص 291.

وكانت القبائل العربية منذ بداية فتح الأندلس ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبعضون قادتهم من رؤساء العرب وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والأماكن الخصبة، وكثيرا ما رفعوا لواء العصيان والثورة، وكان المسلمون الإسبان حديثي عهد بالإسلام يشعرون دائما بأنهم رغم إسلامهم، أخط من الوجهة الاجتماعية من سادتهم العرب. رغم أن الإسلام يسوي بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات. وكان العرب يشكّون في ولاء المسلمين الجدد، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ، هذا إلى أن العربي في الأقطار القاصية التي افتتحها بالسيف، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التي كانت دائما من خواص طبيعته. وقد كانت إفريقية أقرب قطر إسلامي لإسبانيا وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية تفيض أيضا بعناصر الثورة، فقد نزع إليها الدعاة من الخوارج منذ أواخر القرن الأول، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة لحدثة عهدهم بالإسلام، وتعددت نحلهم وطوائفهم، واشتد الخلاف والجدل بينهم، وفسد من جهة أخرى ما بينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة وكثر نزوعهم إلى الثورة وهذا ما يصفه ابن خلدون بقوله :

«ثم نبضت فيهم (أي البربر) عروق الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب النّاقلية من منبعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الأباضية والصفيرية... وفشت هذه البدعة وأعقدها رؤوس النفاق من العرب وجرائم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتزاع على الأمر فاختلفوا في كل جهة، ودعوا إلى قائدتهم طغام البربر، تتلون عليهم مذاهب كفرها ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم كلمات منها ووشجت بينهم عروق من غرائسها. ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمراء العرب» (1).

وسواء كانت الحقيقة تاريخية ثابتة أم كانت مجرد دعوى غير مؤكدة، فإنها كانت من الاهتمامات المعلنة بقوة ضد الأمويين طوال تاريخهم، ولم يحاول الأمويون من

(1) ابن خلدون، العبر : 4 / 110. القسم الأول - المجلد السادس ص 221. (ط بيروت 1959).

جانبهم أن يبعدوها عن أنفسهم ولم تتغير سياستهم مع مواطنهم منذ قيام دولتهم حتى نهايتها، وكانت عندهم بعض الظواهر الدالة على ميلهم للجنس العربي والعصبيات العربية، وربما لم يكونوا متطرفين في هذا الميل إلى الدرجة التي اتهمهم بها أعداؤهم، ولكن كثيرا من ولايتهم كانوا يسرفون في عصبيتهم وفي ميولهم لأصولهم العربية، وقد جاء الأمويون لحكم المسلمين بعد ظهور قوة العرب ومجدهم وبعد نجاحهم في فتوحاتهم العظيمة زمن الخلفاء الراشدين ، فساهموا بدورهم في أمجاد العرب، وأوصلوها إلى غايتها بفتوحاتهم في أقصى الشرق وأقصى الغرب على السواء، وكانوا يشاركون شعبهم العربي في الإحساس بعظمة العرب وسوددهم.

ولقد سنت سياسة الولاة الداخلية في الأندلس منذ العهد الأول سنة الصراع المربيع بين القيسية واليمينية، فقد حكم كل من عنسبة بن سحيم الكلبي (1) وعذرة بن عبد الله الفهري (2) للقيسية. وكانت القيسية الأندلسية موعرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها، فلم يكد هؤلاء الولاة يسيرون في سياستهم اليمينية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألما وجاشت نفوسهم بالثورة وأصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية (3).

ولما تولى أمر الأندلس ولاة قيسيون، كالهيثم بن عبيد الله الكناني (4) ومحمد بن

(1) هو عنسبة بن سحيم الكلبي فاتح من الشجعان ، كان عاملا بالأندلس وكانت فتوحاته بالحذق والمهارة أكثر من فتوحاته بالبطش والقوة. أصيب بجراحات في بعض الوقائع، توفي سنة 725 / 108.

انظر : الحميدي، جذوة المقتبس ص 318 ؛ 507، ابن عذاري، البيان المغرب : 2 / 27.

(2) هو عذرة بن عبد الله الفهري، والي الأندلس بعد عنسبة بن سحيم، لم يعده ابن بشكوال من ولاة الأندلس. انظر المقري، نفح الطيب : 1 / 279 ، 4 / 16.

(3) حسين مؤنس، ثورات البربر في إفريقية والأندلس، المجلة التاريخية، بيروت 1949 ج 10 ص 158.

(4) هو الهيثم بن عبد الله الكناني، والي الأندلس من الشجعان، أخذ ولاية الأندلس في أيام اضطرابها واستمر عشرة أشهر فقط. توفي بها سنة 730 / 111. انظر ابن عذاري، م. ن : 1 / 262، الزركلي، الأعلام : 8 / 104.

عبد الله الأشجعي ⁽¹⁾ لقي الكليبيون اليمينيون خلال عهدهما بلاء شديدا وقد اشتد الهيثم على اليمينيين شدة أثارتهم و دفعتهم إلى العصيان علانية، وبلغ من شدته أن أنكر الخليفة الأموي في دمشق عليه ذلك رغم أنه قيسي وعزله وعاقبه عقابا صارما، وبدأت منذ عهد الهيثم بن عبيد الله في الأندلس خصومة القيسية واليمينية الصريحة الخطرة ولم تظهر هذه الخطورة نسبيا في هذه الفترة، لأن المسلمين كانوا منشغلين وقتئذ بالحروب فيما وراء البرانس.

وقد تجلت حروب العصبيات والصراع بين القيسية واليمينية، ثم الصراع بين العرب والبربر في ولاية عقبة بين الحجاج السلولي، ذلك أن هذا الوالي أوقع به الفرنجة الهزيمة وأرسل إليه عبيد الله بن الحباب والي إفريقية يطلب منه النجدة لقيام البربر بثورة في بلاد المغرب ويطلب منه مهاجمة سواحل المغرب الشمالية، فترأس قوات كبيرة وشن حملة بلغ فيها ساحل إفريقية ووضع السيف في رقاب كل من وقع في يده من البربر ولكنه لم يوفق في إخماد الفتنة. والحقيقة أن حرب العصبيات هذه هي محور السياسة الداخلية في الأندلس وفي إفريقية.

ولما انتشرت ثورة البربر بصورة سريعة، حشد عبيد الله بن الحباب جميع الجنود الذين تحت يده وسلم قيادتهم إلى خالد بن أبي حبيب الفهري والتقى بزعيم ثورة البربر ميسرة المذغري في أرباض طنجة فاقتتل معه قتالا شديدا ثم انصرف ميسرة إلى طنجة حيث قتله جنده، فولى البربر زعيما آخر هو خالد بن حميد الزناتي مما أدى إلى اضطراب صفوف العرب، فألقوا بأنفسهم على صفوف العدو، فقتلوا عن آخرهم وسميت هذه المعركة بوقعة الأشراف لأنه قتل فيها نخبة من أشراف العرب ⁽²⁾. استقر رأي العرب على خلع عبيد الله لاعتقادهم أنه تسبب في إحلال هذه النكبات

(1) هو محمد بن عبد الله الأشجعي، تولى الأندلس سنة 113 / 731 وبقي شهرين فقط، كان واليا

فاضلا. المقرئ، م. ن : 1 / 220، 4 / 279، 17.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 53.

بهم، ولما بلغ الخليفة الأموي في دمشق هزيمة جيشه وثورة البربر أمر بإعداد جيش كبير وأسند قيادته إلى قائد قيسي هو كلثوم بن عياض القشيري ⁽¹⁾ وأوصى بأن يخلفه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري وأذن لقائده باستباحة دماء جميع النواحي التي استولى عليها وقتل كل من يقع في يده من العصاة، وكان في صحبة كلثوم بن عياض موالى أمويين لإرشاده في مسيرته الحربية لأنهم يعرفون الإقليم فوصلوا إفريقية في صيف سنة 741/ 123 ولكن عرب هذه الولاية استقبلوا أهل الشام أسوء استقبال وأرسلوا إلى حبيب بن أبي عبيدة ⁽²⁾ يخبرونه بأن كلثوم ومن معه عازمون على الاستقرار في إفريقية، والتقى الفريقان وقامت بينهما منازعات انتهت سريعا، وانضم جنود الفريقين لمقاتلة البربر وأسفرت هذه المعركة عن قتل كلثوم وموالي الأمويين وانهزم العرب.

ومضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر وعبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة وعاد بعضهم إلى القيروان. وصار أمر العرب إلى بلج فصار ومن معه إلى سبتة واستولوا عليها ومضى البربر في إثر فرسان الشام وحاولوا أن يستولوا بالقوة على سبتة ولكنهم لم يستطيعوا ذلك، فخرجوا إلى ما حولها من الحقول واضطر الشاميون إلى طلب المساعدة من والي الأندلس في ذلك الوقت وهو عبد الملك بن قطن الفهري الذي تولى الولاية عقب مرض عقبة السلولى ⁽³⁾. وكان بلج قد أرسل إلى عبد الملك بن

(1) هو كلثوم بن عياض القشيري أمير إفريقية ولاء هشام بن عبد الملك بعد عزل عبيد الله بن الحبحاب وسيره إلى إفريقية بجيش عظيم سنة 739 / 122 فقتل في معركة مع البربر في وادي سبو من أعمال طنجة. انظر : الزركلي، الأعلام : 231 / 5.

(2) هو حبيب بن مرة أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري القرشي، من وجوه أصحاب موسى بن نصير، قائد من الولاة، ولد ونشأ بمصر ودخل الأندلس مع موسى ووفد على سليمان بن عبد الملك مع جماعة يحملون رأس عبد العزيز بن موسى بن نصير، ثم عاد إلى إفريقية فولي قيادة الجيش في قتال العصاة من البربر وقتل في إحدى معاركه معهم سنة 742 / 124. انظر : الحميدي، جذوة المقتبس.

ص 32 ، 33 ، 311 ، 429. الضبي، بغية الملتبس : ص 274، م. ن : 2 / 172.

(3) ابن عذاري، م. ن : 1 / 54.

قطن يطلب منه السماح له بالعبور إلى إسبانيا، لكنه رفض مطلبه هذا بشدة، ولكن أمرا طارئا لم يكن في الحسبان أرغم عبد الملك على تغيير موقفه، فعلى الرغم من أن البربر المقيمين في شبه الجزيرة لم يصادفوا مثل هذا الاضطهاد الذي صادفه إخوانهم في المغرب إلا أنهم شاركوهم كراهيتهم للعرب.

لقد تمّ على أيديهم فتح هذا الإقليم ولم يفعل موسى والعرب أكثر من جني ثمار النصر الذي أحرزه طارق وجنوده من البربر على جيش القوط وفاز العرب بنصيب الأسد حين جاء الدّور لتقسيم ثمار الفتح، فالعرب كانت لهم الولاية وأخصب البقاع وأقصوا أتباع طارق إلى الجبال الوعرة فوقع عليهم عبء مكافحة النصاري الذين نظموا حركة مقاومة خطيرة في منطقة نافار الجبلية (النبرة) وبلاد البشكنس⁽¹⁾. ولم يستطع الولاة القضاء عليهم لوعورة الجبال التي استقروا بها، ففي أثناء اضطراب البلاد وانشغال الولاة كانت هذه العناصر تنمو وتشتد داخل هضابها النائية. وكانت هي نواة المملكة النصرانية القوية التي نشأت بسرعة واشتدّ ساعدها حتى استطاعت في نحو قرن أن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة إسبانيا⁽²⁾.

ذهب الخوارج من المغرب إلى إسبانيا لنشر دعوتهم ومقاومة ولاية الأمويين بها، فقامت في جليقية فتنة دينية كفتنة المغرب وامتد لهيبها إلى الشمال بأجمعه ماعدا إقليم سرقسطة لأنّه كان البلد الوحيد في هذه المنطقة الذي غلب عليه العرب، ولحقت الهزيمة بالعرب في كل مكان فاتخذ ثوار الخوارج غاليسية وماردة وقلبييرة وطلبيرة مراكز لهم وقسم ثوار البربر أنفسهم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول ذهب إلى طليطلة والقسم الثاني مضى إلى مهاجمة قرطبة والقسم الثالث زحف على الجزيرة الخضراء للاستيلاء على الأسطول الراسي في خليجها ثم عبور المضيق والقضاء على أهل الشام

(1) دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا : ص 156.

(2) حسين مؤنس، ثورات البربر : 1 / 196.

الموجودين في سبتة ونقل جماعة من بربر إفريقية إلى الأندلس (1). فاضطر عبد الملك ابن قطن الفهري إلى طلب المعونة من أهل الشام الذين كانوا في سبتة واشترط أن يخصص لهم مراكز لتتقلهم وأن يغادروا إسبانيا حالما يقضى على الثورة، وأن يسلمه كل فريق منهم عشرة من شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر لتكون رؤوسهم ضمانا لصدق تنفيذ الاتفاق. واشترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك أن ينقلهم جملة إلى المغرب وأن ينزلهم على ساحل ليس للبربر فيه سلطان، ثم وقع نقل عرب أهل الشام إلى الجزيرة الخضراء ومدهم بالموونة والثياب، وانضموا إلى قوات ابن قطن، والتقت القوات المتحدة بالبربر أولا في شنونة (مدينة سدونيا) فهزم البربر وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة (2).

ولما تخلص عبد الملك بن قطن من هذه الثورة طالب بلج القشيري ومن معه بتنفيذ المعاهدة التي بينهما والرحيل عن الأندلس، لكن أهل الشام رفضوا الرحيل واستغلوا فرصة وجود عبد الملك بن قطن بقصره، فثاروا عليه وخلعوه من الولاية، ونادوا ببلج واليا على الأندلس سنة 123 / 740، ومع ذلك لم يسببت النظام والهدوء واستمرّ البغض والحدق بين الشاميين واليمنيين، ثم تجلّى الخلاف بين القبائل نسيبا سنة 129 / 747 واستقر الأمر بتولي يوسف بن عبد الرحمان الفهري الذي لم يبق له بعد هذا النصر منافس وإن لم يكن له من السلطان سوى اللقب لاستثنائ الصميل بن حاتم بالأمر، لذلك كان يوسف يخشى الصميل (3). ورأى أن يبعده عن قرطبة إلى سرقسطة وأعمالها للتخلص منه، فلم يبد الصميل اعتراضا على ذلك واصطحب معه اتباعه ومواليه الذين بلغوا مائتي رجل. وكانت الأحوال في تلك الفترة مضطربة في بلاد الأندلس وفي تلك الأثناء كانت الاضطرابات على أشدها بين العرب وانقطعت الصلات بين مسلمي

(1) حسين مؤنس، م.ن : 196 / 1.

(2) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب : ص 79.

(3) المقرئ، نفح الطيب : 135 / 1.

أربونة وبين قرطبة، فحاول ملك الفرنج الاستيلاء على القواعد الإسلامية في الشمال بعد مقاومة عنيفة من الحاميات الإسلامية سنة 136 / 753 (1).

أما فيما يتعلق بالقيسيين واليمنيين فقد ساد التفاهم بينهم في هذه الفترة ولكن هذا الهدوء كان هدوءاً ظاهرياً لأن اليمنيين كانوا يؤلفون غالبية مسلمي الأندلس، وكانوا يرون أنهم أحق بالأندلس من غيرهم وخاصة أن المكانة العليا كانت للصمّيل والقيسيين من أتباعه فكانوا ينتظرون أول فرصة للثورة على يوسف الفهري (2).

واجتمع اليمنيون والبربر لقتال يوسف والصمّيل. وتكوّن جيش كبير من اليمنية والمضريّة والبربر وضيقاً على الصمّيل الحصار. ولم تقلح محاولته للاستتجاد بيوسف الذي ضعفت سلطته، لذلك اتجه الصمّيل إلى القيسيّين

كان لهذا النزاع الذي حدث بين اليمنيين والقيسيين أثر بالغ في تاريخ الأندلس، فقد انصرف اليمنيون إلى التجارة وبرعوا فيها وأصبحوا من أهل الغناء والثروة وتفرّق بعضهم في ريف البلاد، واشتغلوا بالزراعة واختلطوا بالسكان وعملوا على نشر الإسلام واللغة العربية، وقد ظهر أثرهم في ميدان العلوم وأصبحوا أساتذة الأندلس في الفقه وعلوم والدين فيما بعد، فكانوا من أوائل مؤسسي الحركة العلمية بالأندلس. وكانوا خلال هذه الفترة الحافلة بالثروات حزبا معارضا ظل ينتظر فرصة مواتية للعودة إلى الحكم، فلما أطلّ عبد الرحمان بن معاوية ظنوا أن الفرصة مواتية فأيدوه.

أما عن حصاد هذه السنوات الدموية في تاريخ الأندلس فإن المسلمين خسروا نحو ربع ما فتحوه من البلاد نتيجة لنمو المقاومة النصرانية في الشمال، وتجزّرت في نفوس العرب والبربر رواسب الكراهية التي ظلت قائمة قرونا طويلة، وسفكت بأرض الأندلس دماء كان يجب أن تسفك من أجل غرض أسمي، فقد طعن هذه الصراع المد الإسلامي وراء البرانس، طعنة نجلاء، بل ستعرض بلاد الأندلس للعدوان في عهد

(1) المقرئ، م. ن. : 139.

(2) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص 134.

شارلمان، ولو كانت هذه القوة قد تضافرت في جهد مشترك للقضاء على المقاومة النصرانية في الشمال لما تطاولوا على ديار المسلمين بالإغارة. وكانت بلاد الأندلس في حاجة إلى منقذ غير متورط في الصراعات القبلية فقدّر أن يكون المنقذ عبد الرحمان ابن معاوية بن هشام (1).

ولا عجب من كلّ ذلك فقد قام الصراع العرقي بين العرب والبربر الذين كانوا يعتدون بأنفسهم على أساس أن الفاتح الأول طارق بن زياد منهم وأن الفتح قد تم على أيديهم، وأنهم لهذا أحق من غيرهم بمقاليده الحكم.

هذا عرض موجز لتاريخ عصر الولاة أو عصر المرحلة الثانية من الفتح في الأندلس، وقد انتهى على يد عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. والواقع أن ما استجد في هذا العصر من أحداث ستكون له نتائج يظهر أثرها فيما يلي من مراحل تاريخ المسلمين بالأندلس (2).

لقد اصطدم العرب بتيار رفض من قبائل البربر المنشعبّة بكياناتها التقليدية المتوارثة، وكان للطبيعة الجبلية بكهوفها ومضائقها وشعابها التي انعكست بدورها على طبيعة السكان، الدور البارز في تنشيط حركة المقاومة الداخلية سواء في التصدي لحملات الفتح على مدى سبعين عاما من المحاولات الصعبة أم في الثورة على الأرستقراطية العربية المهيمنة على الحكم في وقت لاحق، وهذا الواقع لم يكن يعني للبربر سوى الحرمان من المشاركة السياسية والعسكرية التي تجلت في عهد موسى بن نصير. ومن جهة أخرى فقدان الاستقلالية القبلية والفردية، وكان للفتح آثار عملية كبيرة، منهما أنه كان يثير حماس المؤمنين من العرب والبربر، ويجعلهم يندفعون نحو ميدان المعارك في الأرض الجديدة تاركين وراءهم إفريقية الشمالية وهي لا تزال بحاجة لمزيد جهودهم. وابتدأ الصراع في التاريخ المذكور وكان أشبه بالمعارك

(1) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب : ص 82.

(2) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس : ص 49.

الطويلة التي كان العرب فيها لا يعرفون لأعمالهم نهاية، أو لا يدرون متى تأتيتهم الفرصة للتخلص من أخطار هذه الحياة ومشقتها وقد حاربوا أمة كثيرة العدد وقفت منهم موقف العداء ورفضت حياة السلام تحت نفوذهم، وعاشت في مناطق واسعة، جعلت الفاتحين يقعون في أخطاء ناشئة عن جهلهم بها، ولم يتسن لهم التخطيط الهادف لتخليص المواطنين المغاربة من وثنياتهم ونقلهم إلى صفوف المؤمنين.

وبعد أن حاولت هذه الجماعات أن تتفهم أغراض العرب الحقيقية من النشاط كله، لم يجدوا في هذا النجاح ولا في هذه المحاولة أملاً كبيراً يساعد على اختصار مدة الصراع، والعرب أنفسهم قد تورطوا في حروب أهلية أثارها خلافاتهم الداخلية الناشئة عن احتياج دولتهم الكبيرة إلى نظم إدارية كفيفة بحفظ تماسكها، وإلى البحث عن حلول جديدة لمشكلاتها المعقدة، وكانوا لا يملكون النظم المطلوبة لأنهم كانوا في فجر وجودهم كقوة كبيرة لأول مرة في التاريخ لا يعرفون الاتفاق على رأي في علاج المشكلات، وداهمت الأحداث الخطرة من داخل دولتهم ذاتها، وشغلهم التنافس على رئاسة الدولة عن الفتح أو أعجزهم عن تعهده بالناية والاهتمام⁽¹⁾.

لقد ظهر الأمويون بالأندلس كأنهم كانوا على هوى مخالف لسياسة أسلافهم حكام دولة الأمويين بالشام. وقد وجد الأمويون طوال تاريخهم بالشرق قوتهم وعصبيتهم في العرب وفي موالى العرب، فحكموا بهم دولتهم واستطاعوا بهم أن يوسعوا حدود هذه الدولة، وأما الأمويون حكام الأندلس فقد وجدوا العرب يقفون في صفوف المعارضين لهم، أو المنافسين لسلطتهم، وكان البربر هناك يؤلفون قوات كبيرة تعرض جهودها وخدماتها على الأمراء في مقابل الرعاية والمكافآت المالية منهم، بالإضافة إلى قوات الموالى والصقالبة والمولدين والمرترقة المسيحيين، وكان في هؤلاء جميعاً ما يكفي أغراض الأمويين لإقامة الدولة وحمايتها من كل أنواع السيطرة أو الوصاية التي

(1) علي حبيبة، مع المسلمين في الأندلس : ص 35 - 36.

حاولت قوات العرب المتنافسة أن تفرضها عليهم (1).

لقد كانت دولة الأمويين بالأندلس منذ تأسيسها تخشى من منافسة العناصر العربية لها وتسعى إلى إيجاد عناصر بديلة وقوية في جيشها، ورغم جهود العرب في إقامة هذه الدولة، فإن الأمويين لم يفهموا أن هذه الجهود لم تكن تقدم باسم الولاء للدولة أو لصاحبها وحده، وإنما كانت تقدم باسم المنافسة بين العناصر العربية القوية هناك، ولم يرد أصحاب الدولة أن يحكموا البلاد باسم جماعة من مواطنيهم، وأن يمثلوا وجهة نظر واحدة لجماعة من الناس، بل أرادوا أن يحكموا الجميع باسم دولتهم وحدها (2). فلم يميلوا إلى أحد العناصر العربية المتنافسة، وكانت منها العناصر اليمنية التي ساهمت بجهدا في قيام الدولة وحراستها، وترك الأمويون العصبية المختلفة لظروفها وحدها، وراقبوا تصرفاتها وطلبوا أيضا من الخارج قوات أخرى عديدة أعانت على حراسة دولتهم واستمرارها وكانت تساهم في ذلك مع قوات العرب التي تساوت عندهم مع غيرها (3).

لقد تطورت الدولة الأموية في سياستها القبلية دون أن تقدر أبعادها المستقبلية على مؤسسات الحكم فتفتشت بذرة العصبية في مختلف الأقاليم دون أن تتمكن من كبح جماحها، وفي الحقيقة يمكننا أن نفهم الحكم الأموي بأنه كنظام أوتوقراطي، كان المسؤول فيه سواء الخليفة أم الوالي يتصف بالحكم المطلق، ومن طبيعة هذا النظام الفردي ارتباطه العضوي بالمسؤول الأول، وهذا بدوره لابد أن يعتمد على جهازه العسكري لبسط نفوذه.

وفي كل أدوار التاريخ كانت هذه الأنظمة تبرز أسماء عسكرية لامعة ترتبط بانتصارات وفتوحات، إلا أنها لا تلبث أن تصطدم بكثير من المشاكل والقضايا

(1) علي حبيبة، م. ن : ص 208.

(2) بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسي : ص 484.

(3) بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسي : ص 485.

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهي بدورها نتيجة للحكم الفردي المطلق. وإذا كان الحكم الأموي في الشرق قد استطاع أو كاد أن يحسم مشاكل الصراع الاجتماعي القبلي في محيط غير متعدد الجنسيات، فالصورة تختلف في ولايتي المغرب والأندلس حيث تتعدد الشعوب والقبائل وتتنوع الأهداف والمصالح. فإذا كان الحكم والسيادة المطلقة للعرب فإن ذلك لم يقض على العصبية القبلية والعرقية. ففي عهد موسى بن نصير تحالف البربر والعرب في صورة متكافئة لتحقيق أهداف عسكرية واضحة، على عكس ما ساد هذه العلاقات بين الطرفين فيما بعد من اختلال وابتعاد كل منهما عن الآخر لا سيما البربر.

كان البربر عنصرا قويا في الفتنة يكون دائما الحقد والكره للعرب ويحرصون على رد ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من الثروات، ثم هنالك ما هو أشد خطرا على دولة الإسلام في الأندلس ونعني إسبانيا النصرانية التي استطاعت أن تخرج بسرعة من غمرة الهزيمة والفوضى وإن تنظم في مملكة جديدة بالشمال، وكذلك مملكة الإفرنج القوية التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما وراء جبال البرت، وكان نصارى الشمال والإفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ويرون في تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل ⁽¹⁾ ويتصلون بكثير من زعماء البربر والخوارج ويمدونهم بالنصح والعون، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها، وكانت الأندلس طوال ذلك العهد بركانا يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة ولكنها صمدت لتلك الأخطار كلها واستطاع عبد الرحمان الداخل بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد أن يغالب تلك الأخطار والقوى، وأن يقبض على مصابير الأندلس بيده القوية، وأن يحيي سلطان أسرته المندثر في ذلك القطر النائي ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين، وكان تفرق خصومه أهم عامل في ظفره، فلم تكن ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل، يجتمع الخصوم حولها وكانت القوى المعارضة

(1) عبد الله غنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص159.

مشتتة في النواحي والمدن تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلي، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضا في معظم الأحيان، وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله، فعمد إلى لقاء المعارضة في الميدان واستطاع أن يخمد ثوراتهم وأن يحطم قواهم بالتعاقب (1).

كان عبد الرحمان في كل مرة يزداد قوة ومناعة ويزداد خصومه ضعفا وتفرقا حتى قضى عليهم جميعا. وبعد أن ظفر صقر قریش عبد الرحمن الداخل في الأندلس وأرسى أسس الدولة هناك ووطد أركان الملك وثبت دعائم الحكم، أخذت الرغبة أيضا في الانتقال إلى الأندلس تزداد، إذ دخلت البلاد بقيام الدولة الأموية بالأندلس عصر الأمن والرخاء والاستقرار والازدهار، فقد وفد إلى الأندلس كثير من العرب وعلى الأخص من الأمويين ومواليهم ومن عشائر العرب التي تربطها بالأمويين روابط وأواصر متينة.

وحيثما أقام العرب في الأندلس فقد عملوا مع أهل البلاد جميعا في التجارة والزراعة والصناعة واختلطوا بالسكان بتواضع في شتى الميادين، وشاركوهم في الحياة العامة وعملوا على التقرب إليهم وإقامة العدل بينهم، ذلك أن العرب في الأندلس كانوا يشعرون أن عليهم رسالة عظمية، كما كان شأن غيرهم من العرب في البلدان المفتوحة الأخرى، فأخذوا ينهجون هذا المنهج في الحياة الاجتماعية ليظهروا بمعاملتهم السمحة وبتواضعهم، امتياز دينهم ليؤمن الناس به، وليصبحوا جميعا أمة واحدة على طريق واحد، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان العرب يعتزون بدينهم الإسلام وبنسبهم العربي ويشعرون بمسئوليتهم العظمى كأمناء على نشر دين الله ورعاية تلك الرسالة السماوية رسالة الإسلام ويفخرون أيضا بنصرهم ودولتهم وكيانهم لذلك فقد عملوا على تقوية كيانهم العربي والاحتفاظ به والتعصب له (2).

(1) م. ن ص 160.

(2) عبد الله بن عواد، الشعر الأندلسي : ص 53.

كان إحساس العرب بأصلهم قويا إلى آخر أيام عهودهم في الأندلس، ولم يذكر التاريخ أنهم نسوا هذا الأصل ولا أنهم يوما ما بعدوا عنه أو تنكروا له، بل استمروا متمسكين بأصولهم وأنسابهم يتغنّون بعروبيتهم وقوميتهم، وبأمجادهم وتاريخهم المشرق، وكانوا دائما يتباهون ويتفاخرون فيما بينهم بالانتساب إلى عرقهم العربي الأصل كأمة عظيمة لها حضارتها الباهرة وتاريخها المجيد ودولتها الراقية (1).

والظاهر أن السبب في انتشار هذه المظاهر وتفاقم الأمور في المغرب الإسلامي يرجع إلى السياسة التي سلكتها الدولة الأموية مع الرعية وأهل الأمصار المفتوحة، وهي السياسة القائمة على مبدأ محاباة العنصر العربي، وسيادته على العناصر المسلمة الأخرى كالفرس والروم والقبط والبربر والقوط وغيرهم من الشعوب التي دخلت الإسلام، وأصبحت جنوده، بل اعتبرهم الأمويون مواليتها وترتب على هذه السياسة أن أصبح المجتمع الإسلامي في عصر الدولة الأموية يتشكل من طبعيتين متميزتين طبقة الأرستقراطية العربية الحاكمة، تتربع على قمة هرم المجتمع الإسلامي والطبقة المستضعفة التي تتكون من الموالى الذين حرموا من المساواة الاجتماعية والسياسية على الرغم من اعتناقهم الإسلام (2).

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم في مصائر الإسلام تجري في المشرق، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر. وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه وتعصف تباعا بمنعة الإسلام في المغرب، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية، والتوغل في الأراضي الإسلامية، على عكس حوادث المشرق التي كانت تتمخض عن عوامل وأسباب أخرى، لكن نفس الوقت اضطربت أحوال الدولة المسيحية وابتسم الحظ

(1) م. ن. ص 54.

(2) عبد العزيز فيلابي، العلاقات السياسية : ص 134.

للمسلمين، وكان في مقدورهم أن يستغلوا هذه الفترة ويتوسعوا في غالة (1) ولكنهم انهمكوا في القضاء على ثوراتهم الداخلية بين العرب والبربر من جهة، وبين اليمنيين والقيسيين والمضريين من جهة أخرى.

وبين هذه الثورات الداخلية خرجت كثير من مدن سبتمانيا عن الحكم الإسلامي وبعد ذلك ومع تلك الغزوات امتنعت دولة أربونة على المسلمين، واستعصت عليهم، ولم يمض عهد قصير حتى انقطعت هذه الغزوات تماما بانقطاع الإتصال بين الأندلس وسبتمانيا (2). وكان لهذه الفتنة التي اضطرت في إفريقية بين العرب والبربر، وما اقترن بها من الأحداث الخطرة صداها في شؤون الأندلس، لأن الأندلس كانت تتبع يومئذ إفريقية. كما كان لثورة البربر في المغرب أثرها في تحريك البربر في العدة الأندلسية، وقد سبق أن بينا كيف كان البربر في شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطا على العرب لما استأثروا به دونهم من مغنم السيادة والحكم.

وفي الشرق أعلنت الخلافة العباسية سنة 132 / 749 واتجه الخلفاء العباسيون إلى استئصال الأمويين، وقد استطاع عبد الرحمن بن معاوية أن يفلت من الموت بأعجوبة، ولم يأبه للكلمات الأمان من العباسيين، ولاقي في طريقه ألوانا من الصعوبات، فلما وصل إلى إفريقية أكرموه، وعندما أحس ببعض الإطمئنان قفز من الشمال الإفريقي إلى إسبانيا سنة 138 / 756. وعن فترة الصراع التي اجتازها عبد الرحمن في مطلع عهده بالأندلس يقول المقرئ :

« وفي الأندلس تجمع حول عبد الرحمان كل من كان من بني أمية، وممن يقول بقولهم، ومن يجد على يوسف الفهري مودة لظلمة جرت عليه أو لتقصير قصر به أو لعطاء حرمة، فاجتمع عنده جمع كبير وقصد بهم قرطبة دار إمارة الفهري فبرز إليه الفهري في جيش لا يحصى كثرة، فاقتتلا وتحاربا مدة عام تقريبا وهزم في النهاية

(1) أخبار مجموعة . ص 42، ابن عذاري، البيان المغرب : 2 / 45.

(2) عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين : ص 152.

وقتل، واستبيح عسكره، وقتل أكثره، ودخل عبد الرحمان قرطبة ودانت له الأندلس بأسرها في سنة 756 / 138» (1).

وكيفما كان الأمر، فقد استطاع الأمير عبد الرحمن الداخل إطفاء نار الفتنة بين اليمنيين والقيسيين وحاول أن يوفق بين العرب البلديين والشاميين وأن يعزز موقفه منهم بفتح الأندلس أمام طبقات النازحين إليها من بلاد المشرق من عائلته وأقربائه وأنصاره ومؤيديه من بلاد إفريقية والمغرب سواء كانوا عربا أم بربرا.